لمحة في تاريخ العراق القديم

الدكتور اكرم الزيباري

العراق بلد الآثار ومهد الحضارة الناضجة وموطن الشعوب والاقوام المختلفة التي سكنته منذ اقدم العصور • فقد سكن الانسان معظم ارجائه الواسعة المليئة بالخيرات الزاخرة بالاشجار والنبات ، ونظرا لخصوبة ارضه ووفرة مياهه فقد استوطنه الانسان منذ القديم وانتشرت على سطحه المدن العريقة الواسعة والقرى الكثيرة المتشعبة ، وحيثما اتجه المرء بطريقه في ارجاء البلاد يشهد آثارا شاخصة تلوح له معالمها وتذكره بماضيها الرائع يوم كانت يافعة مزدهرة وتحولت الى تلول وآكام صامتة •

فلقد ازداد الاعتناء والاهتمام باثار وادي الرافدين من قبل المستشرقين الاجانب خاصة والعالم بصورة عامة بعد ان قام الرحالون بزيارة مناطق العراق الاثرية وتدوينهم في ذلك كتبا عديدة وهم في ذلك يصفون رحلاتهم الى بلاد ما بين النهرين منشأ آدم عليه السلام ويحملون في ايديهم بعض القطع الاثرية مما نبّه شعوب العالم قاطبة الى اهمية تلك الآثار فأخذت تقوم بارسال البعثات التنقيبية واغلبها كان من الهيئات الدبلوماسية للاشتراك في اعمال الحفر والتنقيب والتي لم تكن في اول امرها علمية منتظمة وانما كانت غايتها جمع اكثر ما يمكن جمعه من الآثار بواسطة الحفر غير المنظم واستخراج الآثار النفيسة وبيعها في الخارج باثمان عالية ثم عرضها في المتاحف •

وما ان حلّ القرن التاسع عشر حتى بدأ الالمان بتنقيبات علمية اتبعوا فيها الاساليب الصحيحة فاظهروا فيها الطبقات المتعاقبة وتخطيط الابنية القديمة المتنوعة سواء ما كان مشيدا بالطين واللبن او الجص والحجر • وهكذا فقد اظهرت التنقيبات والتحريات العلمية الحديثة وما استخرجته من آثار قيمة من مختلف مدن العراق القديمة جانبا عظيما من حضارته العريقة في القدم وتاريخه اللامع وتراثه الزاهر • كما ان حلّ رموز الكتابة المسمارية ساعد كثيرا على التوسع في التنقيب وعلى تطويره نحو المرحلة العلمية الصحيحة وبذا فقد كتبت بصدد آثار وتاريخ وادي الرافدين من قبل العلماء الكتب المفصلة والنشرات

العديدة التي تتضمن مختلف العلوم الحية المعروفة لدى القدماء .

فقد اجادوا في العلوم الرياضية والطبية وكتبوا السجلات والوثائق المدونة عن ملوكهم وآلهتهم وتفننوا بكتابة الملاحم والاساطير الشعرية وذكروا الشيء الكثير عن كيفية تعاملهم في شؤون الحياة المختلفة ، لذا فقد استلمنا من وثائقهم القديمة المكتوبة على الواح من الطين عقودا تتعلق بالبيع والشراء والمقايضة او نصوصا تاريخية ادبية تمجد اعمالهم وتفخر بعظمتهم ثم رسائل تعود لادوار تاريخية عديدة منها ماكان اداريا يخص الملوك والامراء ومنها ما هو رسائل شخصية تعنى بأمور الناس . ونظرا لاهمية الرسائل والمراسلات القديمة بالنسبة للباحثة والمؤرخين ولتصويرها المجتمع القديم على حقيقته وعلاته سأتناول في نهاية البحث نموذجا لرسالة بابلية قديمة مع شرح فترة تاريخية هامة مرت على العراق القديم كثرت فيه المراسلات ولعبت دورها في توضيح التاريخ السياسي للبلاد .

كما برع العراقيون القدماء في العلوم الجغرافية والطبيعية وصوروا الخرائط لبعض مدنهم وتخصصوا في علوم الفلك والتنجيم واتقنوا الفنون المعمارية فجاءت ابنيتهم فخمة وخاصة بناء المعابد والقصور وزخرفة جدرانها ونقش مرافقها .

فمن يتتبع الاطوار المختلفة التي مرت على الانسان في بلاد وادي الرافدين منذ عصور فجر حضارته يجدها عريقة مزمنة تعود الى آلاف السنين . فقد التجأ الانسان منذ البداية الى العيش في المناطق الجبلية وسكن الكهوف والمغاور واخذ يأوي اليها اتقاء من شر الحيوانات المفترسة ومؤثرات الطبيعة واعتمد في معيشته في بادىء الامر على ما كان يجمعه من قوت وما يصطاده من حيوان وترك لنا في هذه المناطق ادواته الحجرية المصنوعة من الصوان ومنها المقاشط والسكاكين واخذ يستعملها في الدفاع عن النفس او الهجوم والصيد ومن تلك الكهوف ما اكتشف في منطقة برده بلكه وكهفا زرزي وهزارمرد في السليمانية وفي كهف شانيدار بمنطقة راوندوز .

وانتقل في حوالي الالف السابع قبل الميلاد الى مناطق الهضاب في شمال العراق وتوصل الى تدجين الحيوانات وخاصة الماشية وتعلم الزراعة فبدأ الاستقرار وسكن البيوت الساذجة المبنية من الطين والحصران واسس القرى في مختلف

مناطق العراق ومنها في تل الصوان (قرب سامراء)وقلعة جرمو (قرب كركوك) وتل حسونة (جنوب الموصل) وقام الانسان بتنظيم حياته اليومية فكون المجتمعات وتنوعت ادواته الحجرية فشملت بعض الفؤوس والمطارق والمناجل والحراب • واكتشفت ايضا بعض الادوات الفخارية والجرار المصنوعة من الطين بعضها تشكل دمى طينية تصور الحيوانات التي بدأ الانسان يربيها واخرى تحتوي على النقوش والزخارف الهندسية والآدمية والنباتية •

لقد وجد في تل حلف الواقع على نهر الخابور فخار ملون وأوان متنوعة واما في منطقة تل العبيد الواقع جنوب العراق فقد استعمل الانسان المعادن في صنع ادواته وتفنن بصنعها الى ان جاء عصر الوركاء في غضون الالف الثالث ق•م (نسبة الى مدينة الوركاء قرب السماوة)فاخترع الانسان في النصف الاخير من هذا العصر الكتابة السومرية فدونها على الواح من الطين سجلت بها حاصلات وواردات المعابد والارباح الناتجة منها • وكانت الكتابة في اول امرها صورية واصبحت بعدئذٍ رمزية ثم تحولت الى كلمات مقطعية ذات قيم صوتية •

واللغة السومرية لاتمت الى احدى العائلات اللغوية المعروفة بصلة كما انه لايعرف شيء اكيد عن اصل السومريين وهناك من يقول انهم وفدوا الى العراق من الشرق او الشمال الشرقي واستقطنوا وادي الرافدين ولكننا من نتيجة الحفريات نستطيع القول ان السومريين هم سكان العراق منذ عصور فجر حضارته وقد اسسوا في العراق حضارة عريقة اثرت في تاريخه عامة من نواحٍ كثيرة • وقد اختلطت هذه الشعوب بالاقوام الاخرى كالساميين وكونت معها حضارة راقية برعت في آدابها وعلومها المتنوعة وبنت العمائر والمعابد والابراج المدرجة (الزقورة) واتخذتها معابد لهم يتقربون بها من الآلهة وقد وُصفت من قبل بعض المؤرخين القدماء ومنهم هيرودتس حيث وصف زقورة بابل بانها موغلة في العلو ذات سبع طبقات لوّنت فيها كل طبقة بلون يختلف عن الآخر •

كما زينت جدران المعابد السومرية بسخاريط طينية ملونة من الفسيفساء رتبت باشكال هندسية جميلة وأبدع السومريون في صياغة آنيتهم الحجرية

او الفخارية فنحتت او نقشت باشكال غريبة اكسبتها جمالا ورونقا ، اضافة الى ما لبعضها من معان دينية تصور جانبا من تقاليدهم او احتفالاتهم بأعياد الربيع وبدء السنة الجديدة . (لاحظ رسم الاناء النذري من الوركاء) وقد عثرنا على كثير من هذه التماثيل والآنية والادوات والتي زينت صالات المتحف العراقي واشهر متاحث دول العالم.

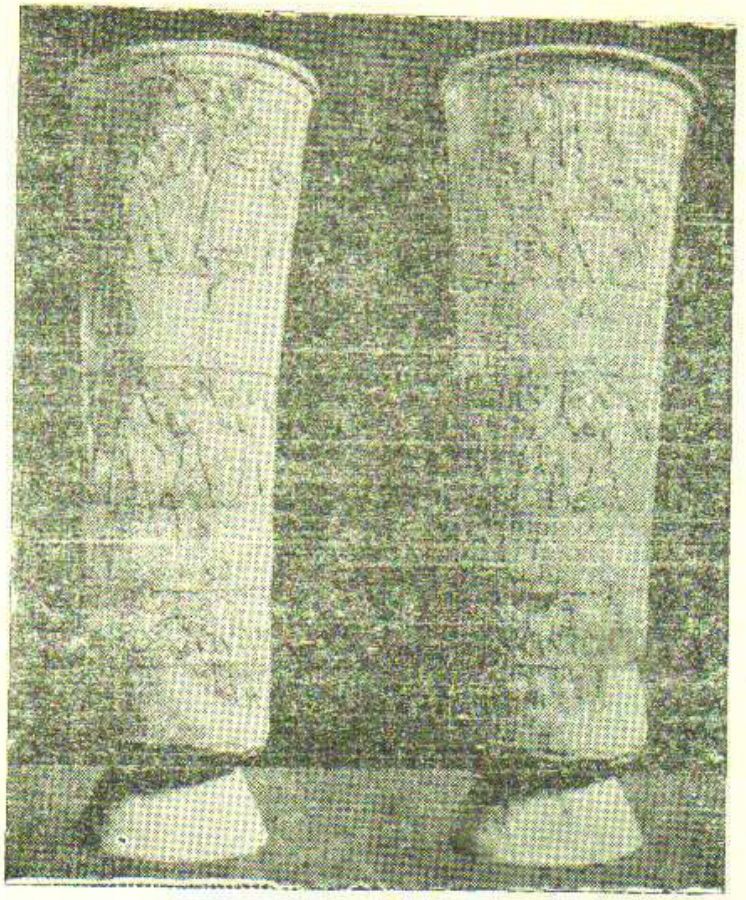

- ١ -

انماء نذرى منحوت من الحجر عليه تصاوير تمثل مواكب لبعض الكهنة التى تحمل النذور والقرابين وتقدمها الى الآلهة وجد فى الوركاء والمرجح انه يعود الى عصر جمدنصر اى الى منتصف الالف الرابع قبل الميلاد . محفوظ فى المتحف العراقى

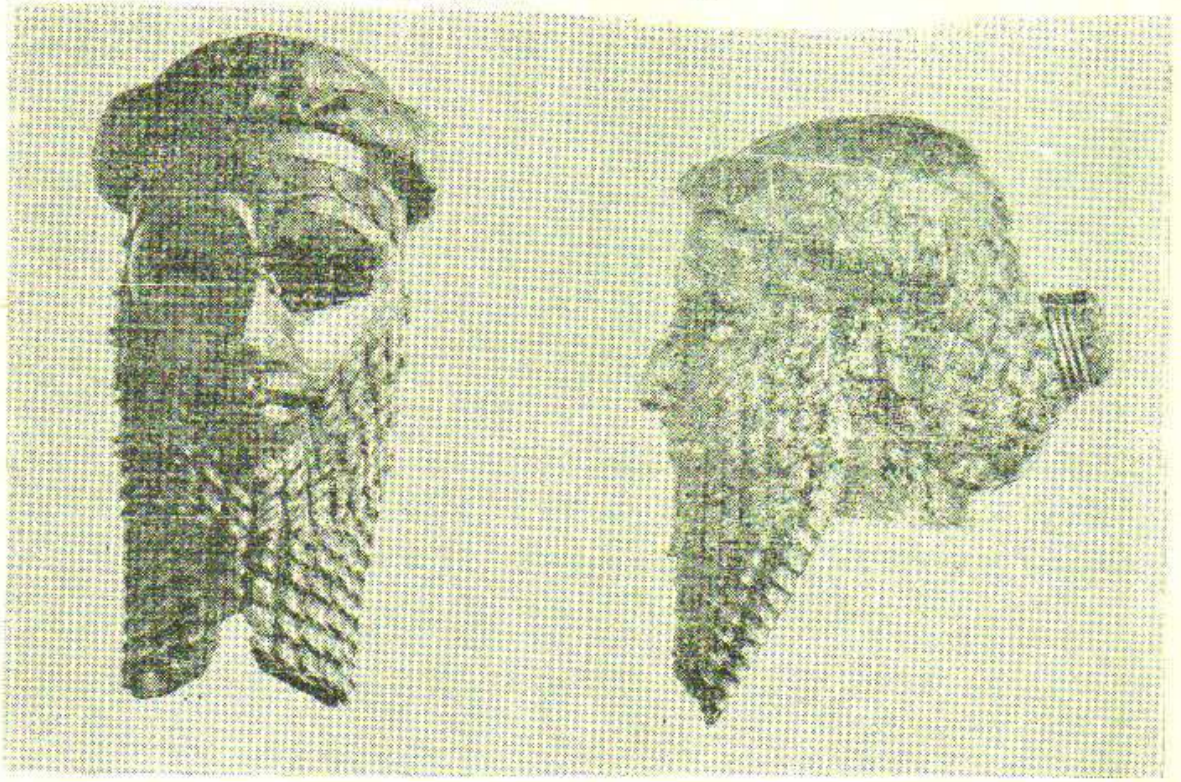

- ٢ -

راس الملك سرجون الاكدى او ربما حفيده نرام سن مصنوع من البرونز بالحجم الطبيعى (٣٥ سم) تظهر عليه علامات البأس والقوة والوقار . محفوظ فى المتحف العراقى .

وحكم الاكديون بلاد وادى الرافدين في حدود عام (٢٣٥٠ـ٢١٥٠ق٠م) وهم من الاقوام السامية تحت قيادة ملكهم العظيم سرجون الاكدي الذي شكل اول امبراطورية في العراق بعد ان كانت البلاد تحكم على هيئة دويلات المدن في عهد السومريين ٠

بهذا فقد انصهرت القوميتان في تكوين حضارة سومرية ـ اكدية سيطرت فيها اخيرا اللغة الاكدية على السومرية واصبحت الاخيرة لغة دينية فقط تستعمل في التعبد وكتابة الادعية الدينية كماهي الحال في المقارنة بالنسبة الى اللاتينية مع اللغات الاوربية الحديثة ٠

وقد سيطر الكوتيون على البلاد وهم من الاقوام الجبلية لمدة تناهز المئة عام (٢١٥٠ ـ ٢٠٥٠ ق٠م) ووصفتهم الكتابات القديمة انهم اقوام قاسية حكمت البلاد بالقوة ونقلت الملوكية من مركزها في بلاد سومر الى جبالهم ٠ وبعدها ارجعت السلطة الى السومريين في عهد سلالة اور الثالثة فانتعشت البلاد في عهدهم وجائتنا الاشياء الكثيرة عن آثارهم وفنونهم ٠

ـ ٣ ـ

مسلة النصر تعود الى الملك الاكدي نرام سن تمثله منتصراً في حروبه على الاقوام الجبلية حوالي عام ٢٢٤٠ ق٠م محفوظة فى متحف اللوفر في باريس ٠

وحكمت البلاد موجة سامية ثانية من البابليين منذ عام (١٨٣٠ـ١٥٣٠ق٠م) وامتدت الدولة شمالا وجنوبا خاصة على يد الملك الكبير والمشرع العظيم حامورابي صاحب المسلة المشهورة المعروفة باسمه ٠ فقد استطاع القضاء على

الفتن ومزق جموع العيلاميين القادمين من ايران فتغنت بمدحه الشعراء ورتلت جموع الناس ترانيم النصر في معابد بابل وسائر المدن الاخرى ، وتفرغ بعدئذٍ لاعمال السلم وتوطيد الحكم وادارة الامبراطورية وخلف لنا جملةً من رسائله الرسمية التي كان يخاطب بها عماله وولاته في مختلف الاقاليم لغرض تسيير دفة الامور واحلال الوئام والاطمئنان في البلاد مما يدل على حزمه وحنكته •

واكتشفت ألواح طينية كثيرة تعود لهذه الفترة من الزمن تحتوي على نصوص علمية مختلفة ومنها مجموعات كبيرة من الآداب والمعاجم اللغوية وقد سجلت بعضها اسماء الحيوان والنباتات ورسم بعضها الآخر قضايا هندسية جبرية تتضمن مبدأ تشابه المثلثات القائمة الزاوية وقضايا اخرى عرفت قديما لدى البابليين بينما نسبت حديثا الى علماء اليونان من امثال اقليدس وغيره •

ومن جملة ماهمّ بوضعه هو سن القوانين الصارمة والتي تستند في مضمونها على مبدأ نشر العدالة واخذ حق الضعيف من القوي فانتشر العدل وزاد الرخاء واصبحت بابل في زمنه مركزا دينيا رئيسا واداريا وثقافيا •

ثم بسطت اقوام جبلية اخرى من الكاشيين نفوذها على بلاد بابل وحافظت بعض الشيء على حضارتها القديمة ولم تُضف اليها الا جزءا يسيرا يتعلق في شكل ابنية المعابد والفنون المعمارية •

- ٤ -

صورة القسم العلوي لمسلة حمورابي مصنوعة من حجر البازلت الاسود تعود الى القرن السابع عشر قبل الميلاد تشاهد فيها الملك حمورابي يستلم شارات الحكم من اله الشمس (شمش) ويامره الاله فيها ان يسن القوانين ويطبقها من اجل نشر العدالة في البلاد محفوظة في متحف اللوفر في باريس

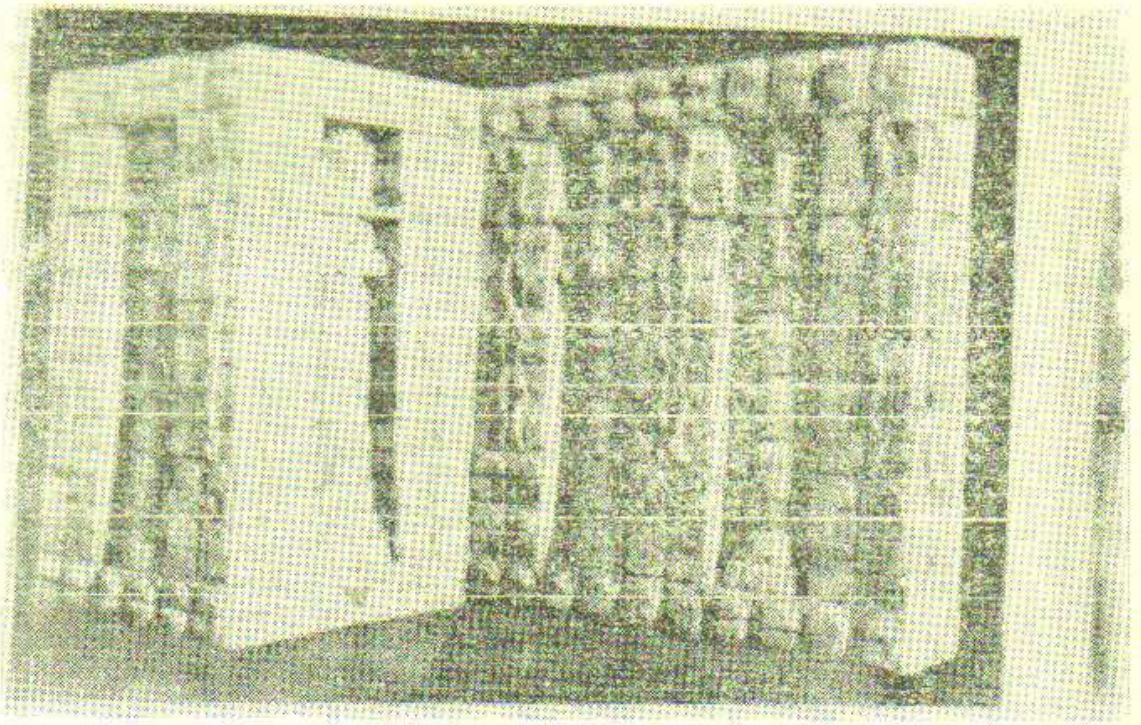

صورة جدار من الطابوق يعود الى العهد الكاشي حوالي عام ١٤٤٠ ق ٠م يمثل واجهة لمعبد ايننا في الوركاء والتماثيل التي في داخل الجدار تمثل اله والهة الجبل يحملان آنية ماء الحياة ٠ محفوظ في متحف برلين ٠

واما بالنسبة الى الآشوريين فقد اتخذوا المناطق الشمالية من العراق ومنذ عهودهم الاولى اماكن سكنى لهم وهم بذلك تابعون من الوجهة السياسية والحضارية الى الجنوب وكانت تبدر منهم محاولات للاستقلال وتتشكل منهم دويلات حينما يمر على الجنوب فترات سياسية مرتبكة ، مثل العهد الكوتي وعهد سلالتي ايسن ولارسا ولكن ذلك لم يكن ليدوم زمنا طويلا ٠ ولم يتكون للآشوريين كيان سياسي قوي انفصل عن الجنوب تماما الا بعد منتصف الالف الثاني ق٠م ٠ وهكذا اسسوا امبراطورية عظيمة امتازت بثقافة عالية وبرعت من الناحية الحربية ٠

وبالاضافة الى ما ورثته من حضارة سومرية وبابلية تأثرت كثيرا بثقافات أمم وشعوب بدائية ومتحضرة اتصلت بها في اوقات الحروب والسلم واقتبست بعض اساليبها الحضارية المتنوعة ومن تلك الشعوب الآراميون والمصريون والحثيون والفينيقيون واليونان والارمن وأدى ذلك الى اختلاط ثقافتهم بها كما انهم دونوا اخبار هذه الشعوب بسجلاتهم وذكروا عن علاقتهم العدائية مع اليهود في فلسطين وبذا فقد اقترنت اسماؤهم بالتاريخ الحديث بالظلم والقسوة مما فيه بعض المغالاة والمبالغة ، وهكذا فقد كانت وثائقهم لنا مصدرا تاريخيا مهما عن احوال تلك الامم ٠

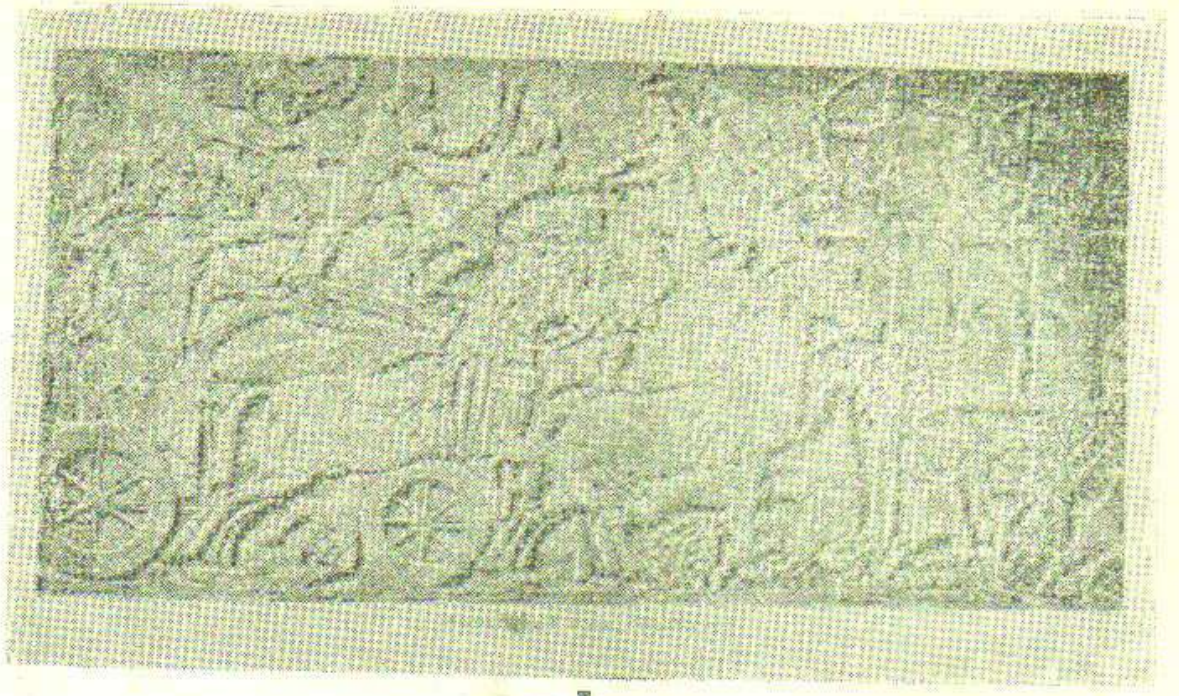

- ٦ -

صورة منحوتة على الحجر تمثل الملك آشور ناصر بال الثاني راكباً عربته يحارب أعداءه قرب احدى القلاع المحصنة ، وقد اخذت اللوحة من قاعة العرش في نمرود وهي تعود الى عام ٨٧٠ ق٠م٠ محفوظة في المتحف البريطاني ٠

وقد اجاد الاشوريون في الشؤون الفنيـة ونقش المنحوتات الحجريـة حيث رسم ملوكهم لأنفسهم من اعالي الصخور في اماكن معينـة من الجبال الشمالية رسوما لآلهتهم ودونوا تاريخهم وما قاموا به من اعمال باسلوب فخم باللغة المسمارية دليلا على عظمتهم وفخرا بقوتهم وان سيطرتهم على معظم شعوب الشرق الادنى واصطدامهم مـع بعض الجاليات اليونانية ساعد كثيرا على تطوير حضارتهم وفنونهم فقد نحتوا مسلاتهم على الحجر ورسموا عليها صورهم الشامخة واظهروا بها الشعوب المغلوبة متدلية الرؤوس تقدم اليهم الهدايا والجزية بكل وقار وخشوع ، كما ان نشاطهم استمر بعد زوال حكمهم فاستخدم الفرس منهم كثيرا من اصحاب الحرف والفنانين في تشـييد مدنهم وتجميلها واخذت اقوام اخرى الشيء الكثير من نظمهم السياسية والادارية ٠

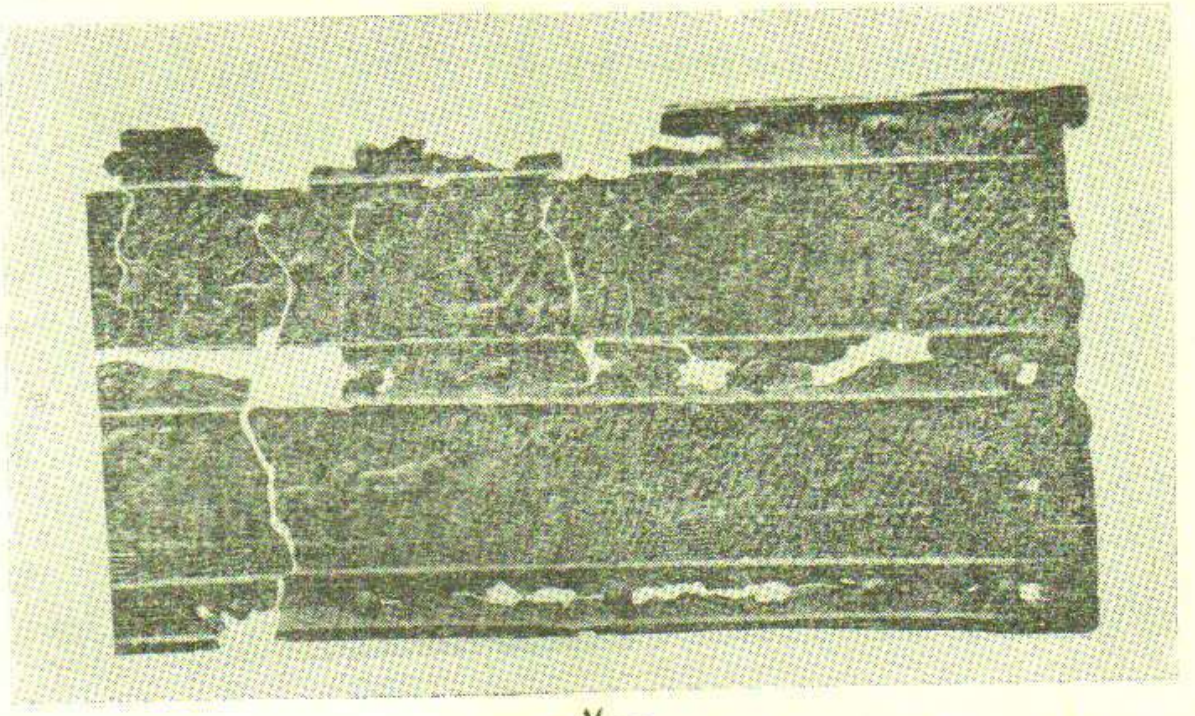

- ٧ -

قطعة برنزية منتزعة من باب امكرانليل (بلوات) تعود الى الملك شلمنصر الثالث عام ٨٣٠ ق٠م٠ تمثل زحف الجيوش الآشورية الى منابع نهر دجلة في ارمينيا ثم تقدم الحيوانات ضحية احتفالا بالنصر ويقوم نحات بنقش صورة الملك ٠ محفوظة في المتحف البريطاني ٠

ساد الاضطراب الداخلي في اواخر عهد الامبراطورية الآشوريةوسقطت نينوى عام ٦١٢ق٠م أمام تحالف الميديين والكلدانيين فانفصلت بابل تحت زعامة الملك الكلداني نبوبلاصر واستعادتقوتها فتمتعت بالرخاء والازدهار العمراني وخاصة على يد ابنه نبوخذنصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ق٠م) الذي اعاد مجد بابل فبنى المعابد الكثيرة والقصور الفخمة وجعلها زاخرة بالعمائر الجميلة والجنائن المعلقة وزينت ابوابها ومنها باب عشتار الهة الحب والجمال بطابوق مزجج نقش بصور الحيوانات الخرافية ومنها الثيران والتنين وحفرت الصور بنحت بارز على ارضية ملونة بالوان عديدة كما انه اتخذ من احدى قاعات قصره متحفا جمع فيه المسلات والتماثيل القديمة وحصن المدينة باسوار قوية وقد جعل من بابل كما تذكر النصوص القديمة وروايات الاغريق وتؤكدها نتائج الحفريات قبلة للزوار واعظم مدينة في الشرق ٠

وبعد هذه اللمحة العامة في تاريخ العراق القديم استعرض لك ايها القارىء الكريم ترجمة حرفية لرسالة كتبت بالمسمارية ارسلها الملك شمشى اداد الاول الى ابنه يسمخ اداد حينما كان واليا على مدينة ماري (تل الحريري) • «الى يسمخ اداد قُل (مايلي) » : هكذا يقول شمشى اداد أبوك •

رسالتك ورسالةسنتيري[1] التي كتبها لك وارسلتها لي سمعت[2] •

لقد كتبت لي بخصوص قمح مقاطعة توتل[3] والذي كنت قد منحته باكمله الى احد موظفيك • ولكني (اقول) : ان هذه المقاطعة هي ليست مقاطعته، كما ان القمح الذي استلمته هو ليس بضريبته[4] • (انه) أخذ يجمع في سنة واحدة من الفضة ما يعادل رطلا واحدا الى رطلين!! فمن أين يأخذها ؟

يجب عليه الا يبيع دائما وبصورة مستمرة القمح والسمن والخمر مقابل الفضة • فليجمع لي هذه الفضة ويرسلها اليّ • من اجل ذلك ارسلوا لي هذا الخبر • بكل حقيقة وتأكيد توجد في مقاطعته حفرة من الفضة• ليأخذ فضةً ويجلبها لي ، وعليه الا يجمع تلك الفضة مقابل القمح والسمن والخمر ثم يحملها اليّ • الآن امتنع عن ادارة شؤون هذه المقاطعة !! (اتركها) في يدي •••••••••• (الرسالة هنا ناقصة ومكسورة بمعدل (١٥)

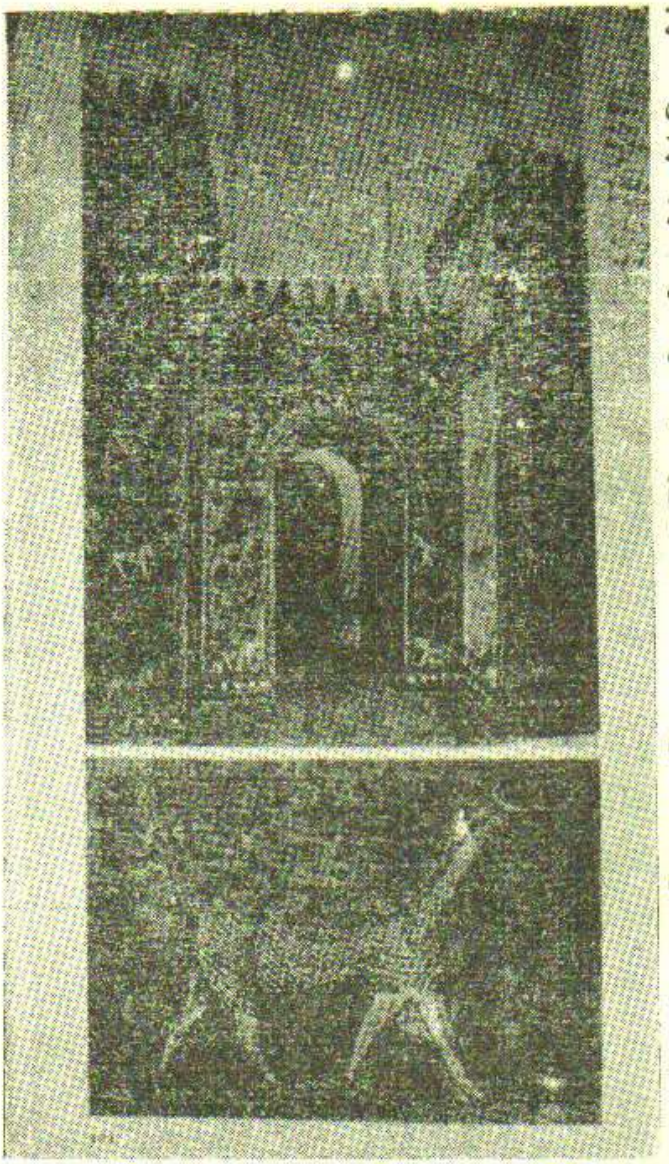

- ٨ -

واجهة لباب عشتار في بابل تعود الى بداية القرن السادس قبل الميلاد عليها رسوم لحيوانات خرافية بارزة معمولة من الآجر المزين بالمينا (كما هو واضح في الصورة السفلى) نقلت من بابل بعض الكسرات المزججه من الطابوق الى متحف برلين واعيد تشييد واجهته هنالك بشكل انيق وجميل •

سطرا ثم يسترسل قائلا) يجب الا يكون الخوف مسيطرا على قلبك .
وانت الى متى ينبغي ان نستمر دائما في تسييرك ؟ هل انك لازلت صغيرا ؟ هل انك لست برجل ؟ وهل مازال الشعر لم ينبت على ذقنك ؟ كم ستستغرق (القضية) الى ان تستطيع من ادارة بيتك !! ألم تشاهد اخاك الذي يعمل على ادارة وامرة الجيوش العظيمة الكبيرة !! لذا فاعمل انت (على الاقل) على ادارة شؤون قصرك وبيتك !! المرجو أن يقرأ هذه الرسالة امامك تاريم شاكن كبير موظفي البلاد .

وتشاور انت مع تاريم شاكن[٥] .ثم اعمل على تعيين حاكم واداري موثوق به في هذه المقاطعة . وينبغي عليه سماع كلمتك وامرك . ثم ينبغي على سنتيري الا يقترب من هذه المقاطعة » .

١ــ سنتيري : اسم لاحد المسؤلين عن ادارة المقاطعات القريبة من قضاء هيت والذي كان تحت امرة الوالي يسمخ اداد .

٢ــ سمعتُ : يقصد بهذا ــ قرأت ــ ان معظم ملوك هذه الفترة كانوا يجهلون القراءة والكتابة وكان يخصص لهم بعض الكتبة المتهنين لها . لذا قدمت تعابير على هذه الصورة بينما نجد الشخص الذي يعرف الكتابة والقراءة يرددكلمة «قرأت رسالتك» أو «رأيتها» .

٣ــ توتل : احدى المقاطعات التابعة لمدينة ماري واقعة قرب البليخ على الفرات والمرجح انها قضاءهيت الحالية .

٤ــ كلمة بيلتو تعنى خراج او ضريبة واحيانا تؤدي معنى رطل ويعادل عيار بوزن (٦٠) مينة .

٥ــ تاريم شاكن : اسم لموظف كبير في البلاط يقابل حاليا رئيس التشريفات او المستشار وكاتم الاسرار .

تحليل وتعليق :

لقد اظهرت التنقيبات الفرنسية التي جرت قبل الحرب العالمية الثانية بين عام ١٩٣٣ــ١٩٣٨ في مدينة ماري (تل الحريري) والواقعة حاليا في سوريا على الفرات الاوسط قرب الحدود العراقية جانبا عظيما من تاريخ العراق القديم فأضاءت الطريق عن دورين مهمين من ادواره هما الدور الاكدي والدور البابلي القديم او مايسمى (بعصر حمورابي) . لنقتصر الكلام هنا فقط عن الفترة البابلية ونذكر قليلا عما اكتشفته البعثة في قصر زمريلم الذي عاصر حمورابي (برئاسة العلامة تيرو دانجا) من وثائق قيمة والواح طينية نادرة . لقد تجاوز عدد هذه الرقم المكتشفة عن عشرين الف رقيم نُشرت معظمها باللغة الفرنسية

خاصة على يدالعالم جورج دوزن ، مما ساعدت على معرفة تاريخ العراق القديم في تلك الفترة وادت الى احداث ضجة كبيرة في علم الآثار واللغة المسمارية • وصلتنا من هذه الرقم خمسة آلاف رسالة تحتوي على قضايا سياسية وادارية ويضم بعضها الآخر أمورا اقتصادية أو اجتماعية فكانت لنا عونا كبيرا في تفهم المجتمع القديم وطرق عيشتهم والتعامل فيما بينهم خاصة وان الرسائل بصورة عامة تصدر من صميم المجتمع وتعتبر اللسان المعبر عن واقعهم فتكشف لنا حقيقتهم ومن كان منهم قويا بارعا محنكا ومن كان ضعيفا عاجزا لايستطيع السيطرة على مقاليد الحكم •

لقد سكنت مدينة ماري قبل بابل من قبل اقوام سامية وكانت تعد أهم مركز حضاري في منتصف منطقة وادي الفرات • فقد سيطر الكنعانيون على هذه المنطقة حوالى الالف الثاني قبل الميلاد فاكتسبوا الخط المسماري ولغة التدوين الاكدية واستقروا أولا على بعد ٥٠كم الى الشمال من تل الحريري باتجاه النهر في مدينة صغيرة تدعى تيرقا ، شيد فيها المعبدالكبير الخاص بعبادة الاله داكان كانت هذه المدينة على مايظهر في حالة تخاصم مع مدينة ماري ، وقد اعلمتنا احدى الرسائل المكتشفة في مدينة ماري ان الاكبكبو والد الملك شمشي اداد الاول كان واليا على مدينة تيرقا حوالي عام ١٧٦٠ ق•م ولكنه طرد مع عائلته من قبل والي مدينة ماري الذي كان يدعى ياگدولم أو ابنه ياخدونلم • لذلك قدم شمشى اداد الى مدينة بابل وتمكن على رأس بعض القبائل البدوية من السيطرة على مدينة ايكلاتم الواقعة على دجلة (حوالي ٦٠كم الى الجنوب من آشور أي قلعة شرقاط اليوم) •

وكما تذكر النصوص استطاع السيطرة على آشور بعد ذلك التاريخ بحوالي عشر سنوات أي في عام ١٧٥٠ق•م واستطاع أن يكون له مملكة واختار الاله أنليل الخاص بمدينة نفر الها خاصا بمملكته ، واطلق على مدينة آشور نفسها اسم شوبات أنليل أي مسكن الاله أنليل واقتبس لنفسه لقب (ملك الجميع) الذي ورثه عن ملوك الاكديين •

حكم شمشى اداد الاول الكنعاني الاصل منذ عام ١٧٥٠–١٧١٧ق•م فاتخذ آشور عاصمة لحكمه واستطاع بذلك من ادارة مجرى التاريخ نحو اتجاه جديد • لقد ساعدت الرسائل والالواح المكتشفة في مدينة ماري في التعرف على التاريخ السياسى لهذا الملك واستنتاج الحقائق الاكيدة عن شخصيته الفذة ، فقد كان حازما ومسيطرا يدير شؤون المملكة ويوجه أبناءه

وولاته وموظفيه في ارجاء البلاد بكل عزم ودراية • لقد كان شمشي اداد كما كان معظم الملوك القدماء في وادي الرافدين لايعرف القراءةوالكتابة لذا وجب عليه ان يُملي رسائلهويستمع الى اجوبتها وتسلم الى ساعي البريد لايصالها •

كانت معظم الرسائل العائدة الى هذا الملك مرسلة الى ابنه يسمخ اداد وان الاماكن الموجهة اليها تدور بين آشور ومدينة ماري وبعض مناطق وادي الرافدين التي يسيطر عليها • وقد افتخر عدوه ياخدونلم مرة وحيّا انتصاراته على الملك شمشي اداد ،بينما قام الاخير بثورة ضد ياخدونلم وتمكن من قتله فكانت له فرصة سانحة استطاع السيطرة فيها على مدينة ماري ثم على تيرقا التي كانت يومئذٍ بلدة تابعة لوالده • فقد قتل اولاد عدوه جميعا عدا الابن الصغير زمريلم الذي أعطى الاماني ووضع تحت الحراسة وجعل من بنات عدوه عازفات ومطربات في قصره • عندئذٍ وضع شمشي اداد ابنه الصغير يسمخ اداد واليا على مدينة ماري ثم ممثلا للملك وجعل من ابنه الكبير اشمي داكان متصرفا على مدينة ايكلاتم وبذلك اقتسموا السيطرة على معظم ارجاء البلاد •

ولقد أدى ذلك الى تبادل الرسائل فيما بينهم وان ما وُجد منها يحتمل انه كان نسخا من الرسائل الاصلية احتفظ بها في القصر ولم يذكرفيها مواضيع شخصية وعائلية خاصة وانما كانت اغلبها رسائل ادارية وسياسية •

لم يكن شمشي اداد الاول من الاشخاص الذين لم يثقوا بالغرباء من الحكام ولكننا كثيرا ما نرى في رسائله حينما يخاطب حكامه وولاته يعتمد عليهم كليا ويشير الى اخلاصهم فكان يحثهم على التحفظ في جباية الاموال والضرائب •كما منح ابنه اشمي داكان الذي كان وريثا للعرش الثقة الكاملة خاصة في سيطرته على المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية الممتدة من بابل الى مملكة اشنونا (منطقة ديالى) ثم الى منطقة جبلية في ايران آهلة ومزدحمة بالسكان كانت بين فترة واخرى وباستمرار تحاول التمرد والقيام بالهجوم والغزوات • وكان يثق به تماما لانه كان جنديا بارعا وقائدا للجيوش قريب الشبه بوالدهمن هذه الناحية ومع هذا كان شابا تنقصه الخبرة التي يكتسبها المرء على مر الزمن • وان نجاحه في الغزوات التي قادها بنفسه حملت الوالد الى مدحه والانتقاص من ابنه الصغير بواسطة المراسلات وحثه فيها على الجد والمثابرة والعمل على انتحال صفة اخيه الكبير الذي نادرا ما كان يلومه او ينتقده ، بينما نجد ان ابنه يسمخ اداد كان ضعيف الادارة وغير راغب في

الحروب كما ينساه له والده . وربما ان هذه المعاتبات واخبار عدم الرضا ناجمة منذ البداية حينما كان صغيرا او لوشاية كانت تصدر عن بعض أولي الامر من المحيطين به امام الوالد . ان انتقاد الوالد لابنه احيانا كان لاذعا الى درجة كبيرة وخير مثال على ذلك الرسالة المارة الذكر والتي قمت بترجمتها وفيها يعاتب ابنه حينما كان واليا على مدينة ماري ويستعمل فيها تعابير قاسية لسوء ادارته ويلومه على عدم يقظته وسيطرته على قصره وولايته وينتقده من انه طفل صغير لم ينبت الشعر على ذقنه وانه يحتاج الى كثير من التفكير والحكمة ويشجعه على عدم تسلط الرعب والخوف الى قلبه كما يحرضه على عزل احد الحكام التابعين له والمدعو سنتيري الذي استغل نفوذه في جمع الفضة واختزانها من قضاء هيت ويطلب منه ان يرسل اليه الفضة التي جمعها الى آشور ثم يحثه على التشاور مع احد موظفي البلاط رغبة ان يختار حاكما شرعيا عادلا موثوقا به لهذه المقاطعة يعمل على تنفيذ اوامره وسماع كلمته .

وتشير هذه الرسالة ـ كما لو كانت قد اثيرت ـ الى وشاية بحقه من قبل اتباع الملك .

وقدوصلتنا رسالة جوابية[1] على ماورد في هذه الرسالة وفيها يلوم الابن والده على ما ذكره في رسالته السابقة واستعماله لبعض التعابير القاسية والجارحة لشعوره ثم يعيد بعض ما جاء فيها من عبارات ويدعي ان الاخبار التي وصلته عنه هي غير صحيحة وملفقة وانهم أي اصحاب الفتنة من تبعة الملك يعملون ويحاولون باستمرار على انتزاع حب الوالد لولده ، ثم يسترسل قائلا انني حينما سأتوجه طرفكم ياوالدي سأضع بين يديك كل ما يجود بنفسي وخاطري ويزيل من اوجاع قلبي وحزني .

١ـ الرسالة الجوابية : موجودة في الجزء الاول من مجلدات مدينة ماري وقد استنسخت برقم (١٠٨) من قبل العالم الفرنسي جورج دوزن .

كما ان رسالة اخرى تشير الى النجاح العظيم الذي حققه الاخ الكبير ويسرد فيها ما يلي : ـ

«اخوك الذي ادى هنا الى مصرع وقتل احد الجنرالات بينما انك مضطجع هنالك بين النساء !! لكنك الآن اذا توجهت مع الجيوش الى مدينة قاتانم ، كن رجلا !! واعمل لك اسما كبيرا كما حقق اخوك لنفسه اسما كبيرا » . مع العلم ان هذا الامر في الزحف على مدينة قاتانم السورية لم يكن حربا انما لجلب ابنة احد الامراء من اصدقائه المتحالفين معه لا غير ، واتخاذها

زوجة له ، وكانت غاية الوالد في ذلك تحقيق بعض اهدافه ومطامحه السياسية واراد بها في هذه الطريقة ان تأخذ قالبا مغايرا يعكس خيرا على الطرفين .

ومع هذا فقد نجد احيانا ان يسمخ اداد كان مصيبا في اعماله ومقرراته بينما كان الوالد يعمل وكأنما لايرغب الى سماع افكاره ومخططاته حيث انه يقول الى ابنه مرة : « من انا لكي ينبغي ان اضع لك من هنا احدا تحت تصرفك ؟ انت تعرف خدامك ! ضع لك احدا منهم والذي يلائمك ! » وفي حالة اخرى يكتب الملك الى ابنه قائلا ! « اذا لم تستطع من تنظيم ادارة هذه المدينة فسلم ادارة المدينة الى شخص آخر» . واحيانا فان الملك لم يدع لابنه مجالا او وسيلة للاعتذار ومثال ذلك : «ألا يستطيع الرجل ان يمتطي الحمار!! لماذا لم ترسله لحد الآن ؟ حسب ما اعتقد كنت تستطيع ارساله قبل عشرين يوما » . ومرة اخبر الملك ابنه يسمخ اداد حينما ترك الملك منتظرا لقدومه فيقول له : تماما وحقيقة سأبقى منتظرك الى الابد في مدينة شوبات أنليل !! وهكذا نجد ان الملك كان يستعمل تلك التعابير في مراسلاته بكل طلاقة واندفاع . بينما نجده احيانا يقوم بمدح اولاده فتصدر منه الرسائل المسلية وغايته من ذلك تدريبهم وتلقينهم من اجل السيطرة على دفة الامور بكل حزم وجدارة .

لقد ضمت دولة شمشي اداد الاول اثناء سني حكمه بلاد آشور وشمال بلاد بابل وكذلك الحافة الشرقية والشمالية المحصورة بين الجبال ولم تمتد نفوذه الى بلاد سوريا بل تركها لابنه اشمي داكان الاول حوالي عام ١٧١٧–١٦٧٧ ق.م ومرة ارسل يسمخ اداد رسالة الى اخيه اشمي داكان حينما كان الاول واليا على منطقة ماري يقول فيها :

« طالما انا وانت في الحياة اجلس دائما على عرشك ، نريد ان نقسم قسما عظيما بالاله ان يخلص احدنا للآخر » . وفعلا فقد تولى يسمخ اداد العرش فقط لعدة شهور بينما حكم اخوه اشمي داكان (٤٠) عاما ، فتمكن زمريلم من بعدها من السيطرة على العرش متجها نحو ماري من مدينة حلب وبذلك فقد السلطة ابناء شمشي اداد الاول على الدولة التي ورثوها عن ابيهم ولم تظهر السيطرة الآشورية الا بعد مرور مئات السنين حينما ظهر فيها قادة جدد سيطروا على ارجاء كبيرة من البلاد .

مراجـع البحث :

١ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة للاستاذ طـه باقر .
٢ـ دليل المتحف العراقي ومجلة سومر لعام ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ .

3. Herrscher im Alten Orient. Wolfram Von Soden, Berlin 1964.
4. Welt des Orients I
(Der Nahe Osten im Altertum)
5. Propyläen — Weltgeschichte. W. Von Soden.
(Das Altbabylonische Briefarchiv von Mari)
6. Archives Royales de Mari. G. Dossin, Paris 1946.
Part I Lettres
7. Correspondance de Samsi — Addu. Vol. I.
8. Ägypten und Vorderasien im Altertum. A. Moortgat.
9. The Art of Mesopotamia. Thames and Hudson, London 1954.
10. Vorderasietische Kunst. W. Speiser.